د. محمد دودح
باحث علمي في هيئة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة

هل يوجد حضارات خارج كوكب الأرض ؟

السؤال: ينتابني سؤال دائما يحيرني وهو أن الكره الأرضية بالنسبة للفضاء كأنها لا شيء حيث توجد آلاف الملايين من المجموعات الشمسية فلماذا هذا الخلق الكبير من أجل أناس يعيشون في الكرة الأرضية وما فائدة هذا الخلق الكبير؟

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد؛ أقول مستعينًا بالحي القيوم المبدع القدير سبحانه:

لقد مد الإنسان بصره كرتين في معركته أمام المجهول عندما خذله النظر المجرد عن كسر الحجب حوله فاستخدم في الأولى المراصد البصرية وفي الثانية أعانته المراصد الراديوية التي تستشعر الموجات اللاسلكية على أن يكتشف أجراما يتزايد انحسارها مع البعد حتى عجز بصره عن الإدراك عند بلوغه أقصى انحسار، والمختصون يقولون أنه كلما نظرت أبعد كلما توغلت نحو الماضي الأبعد لتنعدم الرؤية عند نقطة البَدء، والنتيجة بناء مذهل في الإبداع والتكوين مترابط الأركان رغم عظمة الاتساع موحد التصميم محدد القصد منذ البَدء متعدد الطوابق ملاطه طرائق مقدرة وحبك بلا فطور وإن أسميناه فضاء ولبناته بروج متزايدة التكوين؛ تجمع كوكبي حول الشمس ثم التجمع المحلي للنجوم فالأعظم ثم المجرة فالتجمع المحلي للمجرات فالأعظم ثم الكوازارات، وهكذا سيعاين نفس الانتظام في لبنات متزايدة العلو والتكوين كل من يتطلع من أي كوكب مأهول في الكون، والمدهش أن يسبق القرآن مسيرة العلم بقرون ويتفرد عن المدونات الأسبق بوصف الكون بنفس الأوصاف ويفصلها بلا تشويه مما ينفي عنه شبهة النقل ويقطع بصدق رسالته في الدعوة إلى وحدانية الله بلا شريك أو ولد، وفي وصف البناء الطبقي الشديد الترابط للكون الممكن النظر رغم عظمة الاتساع يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ اللّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ نوح ١٥و١٦، ويقول تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً. وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً﴾ النبأ ١٢و١٣، قال ابن عاشور: "قد عدَّ الله تعالى.. السماوات سبعاً وهو أعلم بها وبالمراد منها، إلا أن الظاهر الذي دلت عليه القواعد العلمية أن المراد من السماوات (آفاق) الأجرام العلوية العظيمة..، ويدل على ذلك أمور: أحدها أن السماوات ذكرت في غالب مواضع القرآن مع ذكر الأرض.. فدل على أنها عوالم كالعالم الأرضي..، ثانيها أنها ذكرت مع الأرض من حيث أنها أدلة على بديع صنع الله تعالى فناسب أن يكون تفسيرها تلك الأجرام المشاهدة"[١]، والتثنية من مآثر القرآن في تأكيد النبأ مع مزيد التفصيل، يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُواْ إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ ق ٦، ويقول تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَىَ فِي خَلْقِ الرَّحْمَـنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىَ مِن فُطُورٍ. ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ الملك ٣و٤.

وبيتنا الآهل أو أرضنا المعمورة بالمؤهلين للتفكر دون سواها في مجموعة كواكب ليست إذن سوى ثمرة عنب ناضجة من فرع يشترك مع غيره في فرع أكبر من أكبر يفيض بالعناقيد؛ وشجرة العنب لا تنتج بالقطع ثمرة عنب واحدة، وقد لا تستشعر نملة سوى ثمرة العنب التي تلمسها لكن إدراك وجود ثمار مماثلة لا يغيب عن أصحاب الفكر، وتصعب نشأة حياة على كوكب غير الأرض أقرب أو أبعد للشمس لكن احتمال تكرر موقعها وظروفها كبير، والبناء الهائل لا يتصور صنعه ليسكنه الخواء لأن كل شيء موجه لغرض حكيم، والقدرة الخلاقة التي مكنت الإنسان بالاستنتاج والتخطيط وأبدعت الذكاء في الأرض قادرة على إنجازه في الكون الفسيح الهرمي البناء، هكذا تنَادى الباحثون بضرورة وجود حضارات عاقلة خارج كوكب الأرض Extraterrestrial intelligence (SETI) تحجبها المسافات الهائلة وحدية سرعة الانتقال، ومنذ أن وضع الإنسان قدمه على سطح القمر في ٢٠ يوليو عام ١٩٦٩ وأنجز الكثير من الانتصارات في كشف المجهول والتسابق قائم على قدم وساق بين مختلف فروع علم الفلك في ثورة محمومة للعثور على دليل مادي ملموس.

وتلمس ما يحقق سبق القرآن ويؤيد حدس العلماء من وجود حضارات قد يفوق بعضها بني آدم، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىَ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ الإسراء ٧٠، وللفطين أن يسأل متطلعاً للسماء: فأين القليل المفضلون على بني آدم أو أهل الأرض؟.

ويشي القرآن عند التأمل بشيوع مظاهر الحياة النباتية والحيوانية والفكر والعبادة في الكون الرحيب، يقول تعالى: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُواْ للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ النمل ٢٥، قال النسفي: " الخبء.. المخبوء"[٢]، وقال البيضاوي: "وهو يعم.. النبات"[٣]، خاصة لكثرة ورود فعل الإخراج في القرآن مقترنا بالنبات دالا على معنى الإنبات، وقال الطبري: "يعني بذلك يظهره"[٤]، ويثور السؤال: فمن حرث وبذر في السماوات كما يحدث في الأرض وقام بالسقاية حتى خرج النبات يحمل الثمر؟، وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىَ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ الشورى ٢٩؛ كلمة (فيهما) لا يحتمل التأويل ويعني وجود أجناس من الدواب في السماوات كما في الأرض، ولا يمكن صرف لفظ (دابة) الدال على وجود أحياء متحركة في السماوات عن ظاهره سواء منها العاقل أو غير العاقل تدب على أسطح كواكبها كما في الأرض، ولا يمكن حمله على (الملائكة) للتمييز بين الجنسين في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ النحل ٤٩، والتعبير: ﴿وَهُوَ عَلَىَ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ لا يمكن قصر دلالته على لقاء تلك الأجناس ببعضها البعض في غير عوالم الدنيا لأن الآخرة مشيئة حتمية الوقوع لا يدخلها احتمال مشروط، ومن يدريك لعل طوائف هؤلاء المستورون الأبلغ مهارة قد جاءوا سابقا وسكنوا كوكب الأرض مع أو قبل البشر!، ويفيض القرآن بما يؤكد لك النبأ من وجود حضارات عاقلة متقدمة لا يحصيها العد خارج الأرض سبقتنا في معرفة الله وعبادته كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ الرعد ١٥، وقوله:﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾ الأنبياء ١٩، وقوله: ﴿إِن كُلّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً. لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً﴾ مريم ٩٣و٩٤، وهكذا يرد تعبير القرآن جامعاً يطابق الحقيقة الخفية بتلطف لا يلفت عن الأغراض الموجهة لعموم المخاطبين، ولا تجد كتابا ينسب للوحي سواه يجول في كل ميادين العلم فلا يخالف الحقيقة ويسبق حدس العلماء معلنًا الحقيقة.

---

[١] تفسير التحرير والتنوير ج١ص٥٣٨.
[٢] تفسير النسفي ج٣ص٢١٠.
[٣] تفسير البيضاوي ج٤ص٢٦٥.
[٤] تفسير الطبري ح١ص٣٥٩.